من كتاب ديارات بغداد :

الديارات وملحقاتها ...

للأستاذ شكري محمود أحمد

الدير بيت يتعبد فيه الرهبان ، ويكون بين الرياض والحدائق في ظواهر المدن والأمصار ، أو في المواضع البعيدة عن الناس كالصحاري والمستشرفات ورءوس الجبال .

وقد أخطأ ياقوت في الكلام على الدير والتعريف به في كتاب معجم البلدان بقوله : « ولا يكاد يكون بالمصر الأعظم ، إنما في الصحاري ورءوس الجبال[1] » . فإننا وجدنا أديرة كثيرة في ظواهر المدن ، فقطربل مثلا وهي ملاصقة لبغداد فيها دير أشموني ، قال الشابشتي : « وعيده اليوم الثالث من تشرين الأول[2] ، وهو من الأيام العظيمة ببغداد ، يجتمع أهلها إليه كاجتماعهم إلى بعض أعيادهم ، ولا يبقى أحد من أهل التطرب واللعب إلا خرج إليه ... ويباهون بما يعدون لقصفهم ، ويعمرون شطه وأكنافه ، وديره وحاناته ...[3] » ، وفي قطربل أيضاً دير آخر اسمه دير « الجرجون » ذكره الشابشتي في الكلام على دير أشموني .

وقد أحصيت الأديرة التي كانت ملاصقة لبغداد أو قريبة منها فوجدتها تقرب من العشرين ديراً ، وربما كانت أكثر من هذا ؛ أما الأديرة التي حول الحيرة أو قريبة منها فأكثر من عشرين ديراً . وهذا ينقض زعم ياقوت بأن الدير لا يكون في المصر الأعظم ، وإذا استقصينا الشواهد على نقضه ضاق بنا المجال .

وربما كان قول المقريزي في التعريف بالدير أقرب إلى الصواب ، فقد قال : « الدير عند النصارى يختص بالنساك المقيمين به ، والكنيسة مجمع عامتهم[4] »

أما قول الفيروز ابادي في الدير ، والتعريف به فقلق جداً لا يدل على اطلاع في هذا الموضوع ، فقد قال : « الدير خان النصارى وجمعه أديار[1] » ، والخان يطلق على كل موضع يقام به في سفر أو غيره .

وقد جاء في الشعر العربي إشارات كثيرة إلى مواضع الأديرة التي تكون على سفوح الجبال أو في السهول والرياض . قال أبو الحسين بن أبي البغل الشاعر في دير الأعلى بالموصل ، وقد اجتاز به يريد بلاد الشام[2] :

انظر إليّ بأعلى الدير مشترفاً ... لا يبلغ الطرف في أرجائه طرفا
كأنما غربت غر السحاب به ... فجاء مختلفاً يلقاك مؤتلفا
فلست تبصر إلا جدولا سرباً ... أو جنة سدفاً ، أو روضة أنفا

وربما كان هذا الدير «دير الأعلى» أكثر الأديرة ارتفاعاً . قال العمري : « وله درجة منقورة في الجبل تفضي إلى دجلة نحو المائة مرقاة[3] » .

وقال ربيعة الضبي يصف إحدى الحسان :

لو أنها عرضت لأشمط راهب ... في رأس مشرفة الذرى متبتل
جار ساعات النيام لربه ... حتى تخدر لحمه متشمعل
لصبا لبهجتها وحسن حديثها ، ... ولهمّ من ناقوسه بتنزل[4]

ومما جاء في وصف موضع الدير الذي يكون بين الحدائق والرياض تحف به البساتين والحقول قول ابن المعتز في دير عبدون :

سقى المطيرة ذات الظل والشجر ... ودير عبدون هطالٌ من المطر
يا طالما نبهتني للصبوح به ... في ظلمة الليل والعصفور لم يطر
أصواتُ رهبان دير في صلاتهم ... سود المدارع ، نعّارين في السحر[5]

وقال جحظة البرمكي في دير أشموني بقطربل، وقد خرج إليه في عيد من أعياده ، فلما وصل إلى الشط ، مدّ عينيه لينظر موضعاً خالياً يعمد إليه ، أو قوماً ظرافاً ينزل عليهم ، فرأى فتياناً من أحسن الناس وجوهاً ، وأنظفهم لباساً ، وأظرفهم آلة ، فعمد إليهم وصاح بغلامه : « يا غلام طنبوري ونبيذي ، فقالوا : أما

(١) ياقوت ج ٤ ص ١١٩ . (٢) هو الإسم العربي لا كتوبر
(٣) الشابشتي ورقة ١٨ .
(٤) الخطط ج ٣ ص ٤٠٩ .

(١) القاموس المحيط مادة دير .
(٢) ياقوت ج ٤ ص ١٢٤ .
(٣) مسالك الأبصار للعمري ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .
(٤) الأغاني طبعة بولاق ج ١٩ ص ٩٣ .
(٥) ياقوت ج ٤ ص ١٥٥ .

الطنبور فنعم ، وأما النبيذ فلا ، فجلست مع أحسن الناس أخلاقاً وأملحهم عشرة ، وأخذنا فى أمرنا ، ثم تناولت الطنبور وغنيت شعراً لى :

سـقياً لأشمونى ولذاتها والعيش فيما بين جناتها
سـقياً لأيام مضت لى بها ما بين شطيها وحاناتها
إذ اصطباحى فى بساتينها وإذ غبوقى فى دياراتها[1]

وعلى ذكر أشمونى وخبر جحظة البرمكى وشعره فيه ، يجمل بنا أن نذكر هذه القطعة البارعة لأبى الشبل البرجى فيه ، وهو كصاحبه جحظة من « عصابة السوء » النواسية :

شهدت مواطن اللذات طرأ وجبتُ بقاعها بحراً وبرا
فلم أر مثـل أشمونى محلاً ألذّ لحاضريه ولا أسرا
به جيشان من خيل وسفن أناخا فى ذراهُ واستقرا
كأنهما زحوف وغىّ ولكن إلى اللذات قد كرا وفرا
سلاحهما القواقز والقنانى وأكواس تدور هلم جرا
وضربهما المثالث والمثـانى
إذا ما الضرب فى الحرب استحرا
وأسرهما ظباء الدير « طوعاً »
إذا أسد الحروب أسرن قسرا[2]

فالدير إذن يكون على قمم الجبال وسفوحها ، وفى السهول بين الرياض والجنائن ملاصقاً للمدن أو بعيداً عنها فى الصحارى والمواضع المنقطعة عن الناس .

ويسمى الدير أحياناً بالعُمْر وجمعه أعمار قال صاحب تاج العروس فى العمر : « والعمر بالضم المسجد والبيعة والكنيسة ، سميت باسم المصدر لأنه يعمر فيها أى يعبد »[3] .

وقد فرق صاحب مراصد الاطلاع بين الدير والعمر ، فخص ما كان منهما قريباً من المدن والعمران بالعمر وما كان بعيداً عنهما بالدير ، وذلك فى قوله : « ... وما كان من مواضع المتعبدات التى فيها مساكن الرهبان بقرب العمران فإنه يسمى العمر »[4] .

وقد مرت هذه اللفظة فى شعر الفتاك والماجنين الذين كانوا يألفون الديارات ويتطارحون فيها . قال أبو نواس :

أذنك الناقوس فى الفجر وغرد الراهب فى العمر
وحنّ مخمور إلى خمـرة وجاءك الغيث على قـدر
يا حبذا الصحبة فى العمر وحبذا نيسان[1] من شهر
يا عاقد الزنار فى الخصر بحرمة الحـانة والفهر
هات التى تعرف وجدى بها واكن بما شئت عن الخمر
يا حبذا الجهر بأمر الصبا ما كنت من ربك فى ستر[2]

وقد أرجع حبيب زيات هذه اللفظة « العمر » إلى أصل أرامى بمعنى البيت والمنزل .

ملحقات الدير :

تشتمل الأديرة على الكنيسة والهيكل ، والقلالى وبيوت المائدة ، ومستودعات الخمور ، والبساتين ومعاصر الكروم والحانات ودور الضيافة ، وحجر الرهبان ، وحجرة لرئيس الدير الذى يشرف على تنظيمه .

ويحف بالدير أحياناً بنايات مرتفعة يسكن كل واحدة منها راهب يقال لها القلالى أو القليات ، ومفردها على الأول قلية ، وعلى الثانى قلاية ، ومعناها الصومعة ، وقد تكون هذه القلالى فى داخل الدير خلف سوره .

وربما كانت هذه اللفظة « قلية » فى الأصل خلية ، وجمعها خلايا لأنها تشبه الخلايا فى شكلها وانتظامها حول الدير .

وقد أخبرنى بعض الأفاضل أن أصل هذه اللفظة يونانى ؛ وهى فى اللغة الأرمنية قليله .

وقد مرت هذه اللفظة فى شعر العصبة النواسية فى مواضع كثيرة نكتفى بقول الثروانى فى دير بالحيرة عرف بقلاية القس . قال :

خليـلى من تيم وعجل هديتما
أضيفا بحث الكأس يوى إلى أمسى
وإن أنتما حييتمانى تحيـة
فلا تعدوا ريحان قلاية القس

(1) الشابشتى ورقة ١٨ ، ١٩ .
(2) الشابشتى ورقة ١٨ ، ١٩ .
(3) تاج العروس ج ٣ ص ٤٣ .
(4) مراصد الاطلاع ج ١ ص ٤٢ .

(1) هو ابريل واسمه فى الشام والعراق نيسان .
(2) ديوان أبى نواس طبعة آصاف ص ٢٧٦ .

وتنتشر حول الأديرة الحقول والبساتين المعمورة بمختلف الأثمار والأزهار ، وقد كانت الكروم أكثر هذه المزروعات عناية ، وذلك لأن الخمور النصرانية التي كانت تدخر في الأديرة لها شهرة ممتازة يقبل عليها الناس من كل جانب .

واشتهرت الزرفة — وهي قرية ملاصقة لبغداد ، فيها أديرة كثيرة — بالرمان الذي ضرب المثل بجودته حتى قيل الرمان المزرفي . وهذه القرية بين قطربل وزوغى ، وتبعد عن بغداد ثلاثة فراسخ .

ومن الأثمار التي عني بزراعتها في الأديار الزيتون والنارنج والفستق والبندق واللوز . وكان الرهبان يعنون بزراعة مختلف الزهور كالريحان والآس والزعفران والنرجس والبنفسج يعملون منه التحايا والأكاليل .

وفي الغالب كان الرهبان يعنون بتربية البقر والأغنام للاستفادة من نتاجها لهم ولأضيافهم ، كما كانوا يعنون بتربية النحل للاستفادة من شمعه وعسله .

وكانت الأديرة مزينة بالقناديل والصلبان والدمى ، مصبوغة بالأدهان ، وقد كانت هذه الدمى منقوشة على الحيطان بمختلف الألوان ، ولا حاجة بنا إلى الاستشهاد بالشعر على ذلك لأنها مرت في مواضع كثيرة من الشعر العربي ، حتى أصبح ذكرها من ملتزمات القصيدة — في بعض الأحيان — كذكر الأطلال والدمن والربوع .

في الغالب المشهور أن هذه الأديرة كانت محاطة بالأسوار المرتفعة خوفاً من اللصوص وقطاع الطرق والفتاك . وربما كان لها باب حديد كدير الأسكون[1] بالحيرة ، أو باب حجر كدير باطا ، ويسمى هذا الدير أيضاً « دير الحمار » وقد كان بين الموصل وتكريت قال ياقوت : « .. وله باب حجر يذكر النصارى أن هذا الباب يفتحه الواحد والاثنان ، فإن تجاوزوا السبعة لم يقدروا على فتحه .. »[2] .

ولكن هذه الأسوار المرتفعة ، والأبواب الحديدية القوية لم تكن لتحمي الرهبان والراهبات على كثرة عددهم من اللصوص والفتاك ، فقد أصيبوا كثيراً بالنهب والقتل وهتك الحرم .

وقصة اللصوص في دير العذارى خير شاهد على ذلك ، وخبر

(١) ياقوت ج ٤ ص ١٢٣ .
(٢) ياقوت ج ٤ ص ١٢٥ .

الحادث يرويه لنا الجاحظ في كتابه « المعلمين » وهذا الكتاب مفقود ، لكن الخبر ينقله عنه البكري والبلاذري وياقوت والشابشتي والعمري . قال : حدثني ابن فرج الثعلبي أن فتياناً من بني ملاص من ثعلبة ، أرادوا القطع على مال يمر بهم قرب دير العذارى ، فجاءهم من خبرهم أن السلطان قد علم بأمرهم ، وأن الخيل قد أقبلت تريدهم ، فاختفوا في دير العذارى . فلما حصلوا فيه ، سمعوا أصوات حوافر الخيل التي تطلبهم وهي راجعة من الطلب فأمنوا . فقال بعضهم لبعض : ما الذي يمنعكم أن تأخذوا القس وتشدوه وثاقاً ، ثم يخلو كل واحد منكم بواحدة من هذه الأبكار ، فإذا طلع الفجر تفرقنا في البلاد ؟ وكنا جماعة بعدد الأبكار اللواتي كن في حسابنا أبكاراً . ففعلنا ما أجمعنا عليه ، فوجدناهن كلهن ثيبات قد فرغ منهن القس .

وينظم أحد هؤلاء اللصوص قصتهم هذه مع الرواهب قائلا :

ودير العذارى فضوح لهن وعند اللصوص حديث عجيب
خـــلونا بعشرين ديرية ونيل الرواهب شيء غريب
إذا هن يرهزن رهز الظراف وباب المدينة فج رحيب
وللقس حزن يهيض الفؤاد ووجد يدل عليه النحيب[1]

واشتهرت قصة دير العذارى هذه حتى وردت في مواضع مختلفة في الشعر العربي .

وفي أحداث سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧) يذكر صاحب مرآة الزمان : « فيها صعد عشرون رجلا من الغز إلى دير للنصارى بميافارقين ، فيه أربعمائة راهب ، فذبحوا منهم مائة وعشرين واشترى الباقون نفوسهم بست مكاكي فضة وذهب »[2] .

فالأسوار المرتفعة والأبواب الحديدية التي كانت تحصن الأديرة لم تحافظ على الرهبان والرواهب ، لذلك نجد أكثر هذه الأديرة متجمعة بالقرب من المدن الكبيرة ، والعواصم المزدحمة ، والأمصار المأهولة خوفاً من اللصوص وقطاع الطرق والفتاك .

أما الكرح بالكسر فبيت الراهب ، ويكون أصغر من القلية ، يسكن فيه الراهب إذا قعدت به الحال ولم يستطع الحصول على قلية . وجمع الكرح أكراح ، ويجيء جمعه أيضاً على صيغة التصغير أكيراح . قال ابن منظور في اللسان ج ٣ ص ٤٠٥ مى

(١) معجم ما استعجم ص ٣٧٦ ، آثار البلاد للقزويني ص٢٤٨ ، ياقوت ج ٤ ص ١٥٧ .
(٢) حبيب زيات ص ٣٠٠ .

بيوت للرهبان يخرج إليها النصارى في بعض أعيادهم . ومعنى هذه اللفظة اليونانية الكوخ الصغير .

وأشهر المواضع التي عرفت بالأكيراح هو دير حنة بالحيرة الذي وصفه أبو نواس في موضعين ، قال :

دع البساتين من ورد وتفاح
واعدل هديت إلى ذات الأكيراح
اعدل إلى نفر دقت شخوصهم
من العبادة إلا نضو أشباح
يكررون نواقيساً مرجعة
على الزبور بامساء واصباح
تنأى بسمعك عن صوت تكرهه
فلست تسمع فيه صوت فلاح
إلا الدراسة للانجيل في كتب
ذكر المسيح بابلاج وإفصاح
يا طيبه وعتيق الراح تحفتهم
بكل نوع من الطاسات رحراح
يسقيكها مدمج الخصرين ذو هيف
أخو مدارع صوف فوق أمساح(١)

ويصف في موضع آخر من شعره رهبانه ورواهبه ، وكيف أصبحوا أنضاء من العبادة :

يا دير حنة من ذات الأكيراح
من يصح عنك فإني لست بالصاح
رأيت فيك ظباء لا قرون لها
يلعبن منا بألباب وأرواح
دع التشاغل باللذات يا صاح
من العكوف على الريحان والراح
واعدل إلى فتية ذابت نفوسهم
من العبادة نحف الجسم أطلاح
لم يبق فيهم لرائيهم إذا حصلوا
خلاف ما خوفوه غير أشباح
تلقى بها كل محفو مفارقه
من الدهان، عليه سحق أمساح
لا يدلفون إلى ماء بآنية
إلا اغترافاً من الغدران بالراح

والغريب أن ناشر مسالك الأبصار يقول إن الأكيراح : بلد نزه كثير البساتين والرياض والمياه(٢) .

والصحيح ما أثبتناه من أن الأكيراح هي بيوت صغيرة تشبه القبة يسكنها راهب واحد إذا لم يستطع الحصول على قلية .

(بغداد) شكري محمود أحمد
مدرس العربية بدار المعلمين الابتدائية

(١) ديوان أبي نواس طبعة آصاف ص ٢٦١ .
(٢) مسالك الأبصار ص ٣١٤ .

خواطر مسجوعة :

فلسفة الفـــــأس . . .

قال صاحبي : هل ذكرت الفأس في كتابك ، وعطفت عليها بآدابك ؟ قلت : نعم وصفتها ، وأنصفتها . فاسمع أيها الصاحب الرشيد ، ما تريد :

الفأس في تكوينها لا تزيد ، عن قطعة من حديد ؛ رُكّبت في غصن تمرد بعد لين ، وتجرد بعد تزيين . هذه في تكوينها هي الفأس ، أداة البأس ؛ فإن لم يدل صنعها على المهارة ، فإن وراءها روح جبارة ؛ تردّ الشظف إن عدا ، وتصد السغب إن اعتدى ...

رأيت حامل الفأس في الصباح ، كجندي شاكي السلاح ؛ يُذِل بطش العيش ببطش شديد ، ويفُلّ بأس البؤس ببأس الحديد ؛ فقلت بخ بخ أيها الإنسان ، هكذا العزة تصان ! وبهذا الفأس يتحطم اليأس ! سر في طريقك غير ملوم فلن يثنيك عن الحرية غشوم ! وواصل الكد في إيمان ، وابحث عن الرزق في اطمئنان ؛ غير مسحور بكذب الآمال ، ولا مأسور بذهب الأغلال ، فإن فأسك أمضى في النقمة ، من السيف في الغمغمة ؛ وأسرع في الإجابة ، من القلم في الكتابة ؛ فلو حكمت بأنها أعز من حسام الكميّ ، وأغلى من يراع العبقري ، لكنت في حكمك صائباً ، ولم تك كاذباً !

والفأس في يدك أيها الزارع ، كالمبضع في يد الطبيب البارع ؛ لها رهبة السلاح ، وعليها سمة الإصلاح ، تعمل حدها في الأرض ، فتنشق كثائنها ، وتستأصل آفتها . وتمهد السبيل للماء . وتمد الحقل للنماء ...

وحسب الفأس شرفاً أنها تؤتى نائلها ، وتحمل حاملها ؛ بل تحنو على من يحنو عليها ؛ وتعز من يلتجئ إليها ؛ فترحه من المن ، وتقيه سوء الظن ؛ وتدرّبه بطول الركوع على الخضوع لله ، وتهون عليه ما تعقد من أسباب الحياة !

حامد بدر